الفكر التربوي عند الشيخ عثمان دان فوديو

آدم بمبا
قسم التربية الإسلامية، أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة ملايا، كوالا لمبور، ماليزيا
bamba@um.edu.my

الملخص: استهدفت هذه الدِّراسة تحديد الرُّؤى التَّربويَّة التَّعليميَّة في فكر الشَّيخ عثمان دان فوديو مؤسِّس دولة الخلافة بصكوتو، ولبلوغ هذا الهدف، فإنَّ هذه الدِّراسة قد اتَّبعت منهجًا وصفيًّا تحليليًّا لبعض آثار الشَّيخ من كُتُبٍ ورسائل مقرونًا بالمنهج التَّاريخي في النَّظر إلى الوقائع التَّاريخيَّة التي تشكَّلتْ شخصيَّة الشَّيخ الفكريَّة والعلميَّة في إطارها. وقد توصَّلت هذه الدِّراسة إلى أنَّ الشَّيخ قد تقدَّم على زمانه فكرًا وتطبيقًا برؤًى تربويَّة تعليميَّة تقدُّميَّة عدَّة، مثل التَّأكيد على الحق الفرديّ والجماهيريّ للتَّعلُّم، وربط التَّعلم بالتَّطبيق المباشر، وبالحاجة، وبتحقيق إنسانيَّة المتعلِّم وكرامته، والتَّأكيد على تعليم المرأة تعليمًا شاملاً في جميع مجالات المعرفة الممكنة. هذا، وتأمل هذه الدِّراسة من الدِّراسات المستقبليَّة استكمال ما فات من كُتُب الشَّيخ ومؤلَّفاته في الدِّراسة الحاليَّة؛ حتى يخرج القارئ بصورةٍ متكاملةٍ عن الرُّؤى التَّربويَّة التَّعليميَّة عند الشَّيخ عثمان دان فوديو.

المصطلحات: الفكر التربوي، عثمان دان فوديو، صكوتو، التربية الإسلامية.

المقدمة

إذا كان جلُّ الباحثين والمؤرِّخين أمثال هيسكتْ (Hiskett, 1973)، وبلوغُن (Balogun, 1973)، ولاست (Last, 1967)، وغيرهم، يؤكِّدون أنَّ الشَّيخ عثمان دان فوديو هو مجدِّد البلاد السُّودانيَّة في القرن الثَّامن عشرَ الميلادي، فإنَّ الحركة التَّربويَّة التَّعليميَّة التي قام بها الشَّيخ ببلاد هوسا قرابة ثلاثين عامًا، هي قطب الرَّحى في الحركة التَّجديديَّة التي تحقَّقت على يديه هو وبناة دولة الخلافة بصكوتو. عليه، يجدر طرحُ السُّؤال الآتي: تُرى ما الرُّؤى الفكريَّة التي قامت عليها الحركة التَّربويَّة التَّعليميَّة عند الشَّيخ دان فوديو؟ وما مظاهر التَّجديد في تلك الرُّؤى في إطار الظَّرف التَّاريخيِّ الذي ظهر فيه الشَّيخ دان فوديو؟ تلكما سؤالان تستهدف هذه الدِّراسة الإجابة عنهما عبر قراءة استعراضيَّة لكتابات الشَّيخ وآثاره المخطوطة والمطبوعة. وتنتظم هذه الدِّراسة في استعراضٍ مختصر لسيرة الشَّيخ، وتأطيرٍ للواقع العلمي والثَّقافيِّ ببلاد السُّودان، ومن ثم تتبُّع الرُّؤى التَّربويَّة التَّعليميَّة في آثاره.

أمَّا عن الشّيخ وسيرته الحياتيَّة، فهو: عثمان بن محمد، بن عثمان، بن صالح، بن هارون، بن محمد غُورْطُ، بن محمَّد جُبَّ، ويُشتهر بـ"دان فوديو" بالهوسا، وبـ"ابن فودي" في الكتابات العربيَّة، ومعناه "العالم الفقيه". ولد يوم الأحد آخر أيام صفر عام ١١٦٨ هـ (١٥ ديسمبر ١٧٥٤ م)، ببلدة "مَرط" (Maratta)، بمنطقة "كوني" (Konni). وقد صرَّح الشَّيخ دان فوديو نفسُهُ –عرضًا– ببعض المعلومات عن نفسه في معرض نَفْيِهِ صفة المهديَّة عن نفسه، حين قال: "اعلَمُوا أنّي لستُ بالإمام المهديِّ، ولا ادَّعيتُ المهديَّة (...) كيف أدَّعي المهديَّة وقد وُلدتُ في بلاد السُّودان في مكانٍ يُسمَّى مَرَتَّ، وقد عُرف في الأحاديث النَّبويَّة أنَّ المهديَّ يولد بالمدينة؟! كيف أدَّعي المهديَّة ولم يُواطئ اسمي اسمَ النَّبي محمَّد صلى الله عليه وسلم؛ إذ اسمي عثمان، ولم يواطئ اسم أبي اسم أبيه؟! إذ اسمُ أبي محمَّد، وقد عُرف في الأحاديث النَّبويَّة أنَّ المهديَّ يواطئ اسمُهُ اسم النَّبي صلى الله عليه وسلم ويواطئ اسمُ أبيه اسمَ أبيه..." (Dan Fodio, 1963c). أمَّا عن عشيرته ومجموعته الإثنيَّة، فهو من فُولْبي الطُّوديهْ (Torodbe)، وهم طبقة العلماء الدُّعاة من الفولانيِّين، وهي التي هاجرت من منطقة فوتا تورو (Futa Toro) بسنيغامْبيا واستقرَّت ببلاد هوسا بالسُّودان الأوسط.

نشأ دان فوديو ببلدة علميَّة هي ديغيلْ (Degel) (Ibrahim, 1986) وبها تلقَّى علومه الأولى على يد والده وأخواله وأفراد أسرته رجالاً ونساء. توفي الشَّيخ –رحمه الله– بصكوتو عام ١٢٣٣ هـ/ ١٨١٧ م وعمره ثلاثٌ وستُّون سنة.

الواقع العلمي ببلاد السُّودان

إذا سلمنا بأنَّ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلاديَّ يمثِّل بداية الإسلام ببلاد السُّودان الغربيِّ، فإنَّ الدِّين الإسلامي وما صاحَبَهُ من حركةٍ علميَّة قد بلغ مرتبة من التَّألُّق في غضون القرن الخامس عشَر الميلادي، وما أعقبَهُ من القرون، وكانت تمبكتو، وجيني، وكانم وبورنو، شواهد حيَّة في التَّألُّق العلمي آنذاك. كما يشهد بذلك –في الوقت الرَّاهن– عشرات المكتبات التي تحوي مئات الآلاف من المخطوطات الإسلاميَّة بتلك الحواضر. كذلك شهادات المؤرِّخين والرَّحالة الذين زاروا تلك الحواضر، وأشادوا بالحركة العلميَّة بها، منهم ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ)، وليون الإفريقي، وهوج كلابرتون (ت ١٨٢٧ م)، وهنريت بارث (ت ١٨٦٥ م).

على سبيل المثال، حين زار ليون الإفريقي تمبكتو في أوائل القرن السَّادس عشَر الميلادي، سجَّل أنَّ الحركة التِّجاريَّة نشطةٌ بها، وأنَّ تجارة الكتب وأدوات الكتابة تتصدَّر البضائع التِّجاريَّة. قال: "وفي تمبكتو عددٌ كثيرٌ من القضاة والفقهاء والأئمَّة، يدفع الملك إليهم جميعًا مرتبًا حسنًا، ويعظِّم الأدباء كثيرًا، وتُباع أيضًا مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدرُّ أرباحًا تفوقُ أرباح سائر البضائع" (al-Afriqi, 1990). وقبل ذلك في القرن الثَّالث عشَر الميلادي، حين وفد الفقيه عبد الرَّحمن التَّميميُّ من الحجاز مع مانسا موسى؛ ليتصدَّر للإقراء والقضاء بتمبكتو؛ وحين جلس بجامع سنكوري سرعان ما أدرك أنَّ المدرِّسين حواليه أكثر تضلُّعا منه في العلوم الشَّرعيَّة، فكان أمينا مع نفسه؛ إذ تخلَّى عن التَّدريس وسافر إلى مراكش ليستزيد علما ويعود بعد ذلك إلى تمبكتو (al-Burtali, 1980).

بتحديدٍ أكثر، كانت بلاد السُّودان الأوسط حيث ظهر الشَّيخ دان فوديو بحركته التَّجديديَّة، لا تقلُّ عن بلاد السُّودان الأقصى، وكانت مدينة بورنو توازي تمبكتو في التَّألُّق العلمي، وذلك بفضل عهدها الطَّويل تحت حكم ملوك سَيْفاوا الذين عُنوا بالعلم، وبالتَّواصل النَّشط مع القاهرة، ورعايتهم لطلبة العلم بها، وكان لهم رواق شهيرٌ باسم "رواق الكانم". نجد تأكيدًا لمكانة بورنو العلميَّة عند المؤرِّخ السُّلطان محمد بيللو في قوله: "وقد انتشر الإسلام فيها انتشاراً بين سلاطينهم ووزرائهم وعامتهم. بل لا يوجد في هذه البلاد عامة إلا معتنون بقراءة القرآن وتجويده وحفظه وكتابته"(Bello, 1957)، ومن علمائها الشَّهيرين الشَّيخ الإمام محمَّد بن الحاج عبد الرَّحمن البرناوي، المعروف بالشَّيخ الحجْرمي (ت ١٩ صفر ١١٥٩ هـ/ ١٣ مارس ١٧٤٦ م)، صاحب الأرجوزة الشَّهيرة "شرب الزُّلال" (Hunwick, 1994)، ومنهم الشَّيخ طاهر الفولاني صاحب كتاب "الدُّرر اللَّوامع".

بلاد هَوْسا (Hausa Land): هي المناطق الشَّماليَّة لجمهوريَّة نيجيريا الحالية، ويؤكِّد استعراضُ تراجم علمائها كذلك حيويَّة النَّشاط العلمي بها، ومن مشاهيرهم: الشَّيخ عبد الله الثِّقة الفولاني، درس بأغاديس وفزَّان، وكان من جلَّة علماء بلاد هوسا، ومنهم الشَّيخ محمد الفلاتي الكشناوي (ت ١١٥٤ هـ/ ١٧٤١ م)، وهو من أساتذة حسن الجبرتي الكبير بمصر، درس على المغيلي (٩٠٩ هـ/ ١٥٠٤ م)، والسيوطي (٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م)، والقلقشندي (ت ٧٥٦ هـ/ ١٣٥٥ م). استقرَّ بالقاهرة وبها توفي، من مؤلفاته: "بلوغ الأرب من كلام العرب" في النحو، و"بهجة الآفاق وإيضاح اللبس والإغلاق في علم الحروف والأوفاق" و"الدُّر المنظوم وخلاصة السر المكتوم" و"الدرر واليواقيت" في شرح منظومة الدر والترياق لعبد الرحمن الجرجاني في علم الحروف.

إجمالاً، فإنَّ الحركة العلميَّة ببلاد السُّودان، منذ بدايات القرن السَّادس عشَر الميلادي، قد ارتقت إلى الإنتاج المحليِّ، ولا سيَّما في حقل التَّاريخ والأدب، وكتب النَّوازل الخاصَّة بالمنطقة، فقد ظهرت في تلك الفترة وما بعدها كُتُب التَّاريخ الأصول بالمنطقة، مثل: كتاب "نيل الابتهاج" للقاضي أحمد بابا التمبكتي (ت ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧ م)، و"تاريخ الفتاش" للقاضي ابن المختار (ت ١٥٤٣ م)، و"تاريخ السُّودان" لعبد الرحمن السَّعدي (ت ١٦٣٥ م)، وغيرها من التَّواريخ المحليَّة.

هذا، وحين سقطت تمبكتو عسكريًّا إثر الغزو المغربيّ (١٥٩١ م)، فإنَّ الحركة العلميَّة قد انزاحتْ إلى بلاد السُّودان الأوسط، وشهدت نُقلةً نوعيَّة في غضون قرنٍ بظهور علماء متخصِّصين شهيرين في أفرعٍ علميَّةٍ محدَّدة، وفي إقراء كتُبٍ معيَّنة، فالشَّيخ محمد ثَنْبُ كان متخصِّصًا في إقراء كتاب الخراشي، والشَّيخ محمد المَغُوري، قد ذكره عبد الله بن فودي، وأشاد بتضلُّعه في معرفة كتاب "المختصر"، وأنَّ شهرتَهُ في معرفة هذا الكتاب مثل الشَّمس. قال: "وكلُّ مَنْ لم يقرأ منه في بلادنا زمانَهُ، فكأنَّه لم يقرأه" (Hiskett, 1957). والشَّيخ محمد بن راج كان متخصِّصًا في إقراء صحيح البخاري، والشَّيخ جبريل بن عمر (ت بعد ١٢٠١ هـ/ ١٧٨٦ م) شيخ دان فوديو في كتاب "الكوكب السَّاطع"، وغير ذلك.

على الرُّغم من هذا المناخ العلميِّ الخصب ببلاد السُّودان عامَّة، وببلاد هوسا خاصَّة، فإنَّ التَّألُّق العلمي في أواسط القرن الثَّامن عشَر يمكن أن يوصف أنَّه كان فرديًّا، أي أنَّ أفرادًا من العلماء كانوا وحدهم المتألِّقين، أو أنَّ العلماء النَّابهين كانوا أقليَّة. أمَّا الأكثريَّة فكانت تهيم على نفسها في الفقهيَّات البالية، وتستهلك الأفكار والرُّؤى القديمة. يصف المؤرِّخ بيللو هذا الواقع في عصره بقوله: "وكان قُرَّاءُ هذه البلاد وما قرُب منها معتَنين بعلْم الأوفاق والحروف، وعلم النُّجوم، مستغرقين في طلَبِها، حريصين على ذلك، حتى هَجَروا علم الكتاب والسُّنة والشَّريعة أصلاً؛ رغبةً في الدُّنيا" (Bello, 1957). ويمضي في دعم هذا القول بالاستشهاد بما أورَدَهُ الشَّيخ الحذق العلاَّمة عمر بن محمد التُّرودي، من تحذيرٍ للطَّلبة عن اطِّلاع مجموعةٍ من الكُتُب كانت متداولةً في بلاد هَوْسا آنذاك، يقول: "أمَّا بعد، فالكتب التي لا ينبغي مطالعتُها، والاشتغال بها؛ لكون أكثر ما فيها ضعيفاً وباطلاً، ولكون الأحاديث والآثار التي فيها موضوعات كثيرة في أيدي النَّاس، منها..."، وذكر الشَّيخ أربعًا وخمسين كتابًا، منها: كتاب "وصيَّة علي"، وكتاب "دقائق الأخبار"، وكتاب "تارك الصَّلاة"، وكتاب "المعراج الكبير"، وكتاب "مناجاة موسى"... إلخ (Bello, 1957). من هنا بالذَّات، يظهر مدى إسهام الشَّيخ دان فوديو برؤيته التَّربويَّة التَّعليميَّة في الإصلاح وإخراج الطَّلبة من هذا الوضع المتأسِّن إلى الاهتمام بالعلم الحقيقي المحكوم بالرُّؤى التَّربويَّة السَّليمة. وتلك هي مدار المحور الآتي، أي بيان الرُّؤى التَّربويَّة التَّجديديَّة عند الشَّيخ دان فوديو.

موقفه من العلوم والمعارف

يشكِّل موقف الشَّيخ دان فوديو من العلوم والمعارف حجر الأساس والبؤرة الجنينيَّة للفكر التَّربويِّ عنده، فكيف ينظر إلى العلوم والمعارف ومصادرها؟ يمكن الإجابة عن هذا السُّؤال باستعراض جملةٍ من آرائه:

أ- **مصدريَّة القرآن في أخذ العلوم والعقائد**: يؤكِّد الشيخ دان فوديو أن القرآن الكريم هو أصل المعارف والعقائد، ويجب.. "أن يأخذ كلُّ مؤمنٍ عقيدتَهُ من القرآن العظيم؛ إذ الله تعالى أثبت جميعَ قواعدِ الإيمان في القرآن" (Dan Fodio, 1957b). وإذا تقرَّر وجوب الأخذ بالكتاب، فإنَّ الشيخ يؤكِّد أنَّ الله قد أوضح أصول جميع العلوم والعقائد في القرآن الكريم. يقول: "وممَّا أقرِّره في المجالس، المرَّة بعد المرَّة، القولُ بأنَّ الله تعالى أوَضَح جميعَ العقائد التَّوحيديَّة ببراهينها العقليَّة في القرآن العظيم، ولم يتركْ شيئاً من ذلك مما هو واجبٌ على المكلَّف في التَّوحيد، وقد أغنى عن الاحتياج إلى طلب العقائد وأدلتها من كتب العلماء" (Dan Fodio, 1957b). أمَّا موقفه من السُّنة النَّبويَّة، فهذا هو محوَرُ دعوته، وعليه مدارُ جميع كتُبه؛ حيث دعا إلى إحياء السُّنة وإخماد البدَع.

ب- **موقفه من العلوم الشَّرعيَّة**: يرى الشَّيخ دان فوديو أنَّ علوم الشَّريعة تأتي بعد الكتاب والسُّنة، وهي مقدِّمة ضروريَّة لجميع العلوم والمعارف، ومن هذا المنطلق فهو يقيس سائر العلوم، فما وافق منها أصول العلوم الشَّرعيَّة أخذ به، وإلاَّ طُرِح. على سبيل المثال، حين حكَمَ على علم التَّصوُّف وعلى أفكاره –قبولاً ورفضًا– وازن هذا العلم بالشَّريعة، وبمدى التزامه بالقرآن والسُّنة، وأكَّدَ أنّ علم الشَّريعة مقدَّم على علم الحقيقة، ووصف من يُقْدِمُ على علم التَّصوُّف دون التَّفقُّه في الدِّين والشَّريعة بأنَّه زنديق (Dan Fodio, 1957b). ورأى أنَّ الشَّرط الأوَّل في النَّظر في علم التَّصوُّف والحكم على المتصوِّفين، أن يكون النَّاظر عالمًا بعلوم الشَّريعة، قال: "والنَّظرُ في كُتب أهل الكشف لا يجوز إلاَّ للعالِم الذي يعلَمُ كتابَ الله، وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، يأخذُ منها ما بانَ رشدُهُ ويَدَع ما لم يتَّضح له..." (Dan Fodio, 1957b). كذلك، فإنَّ الشَّيخ قد حكَمَ على علم الكلام بالمعيار نفسه؛ حيث ذهب إلى أنَّ ما وافق منه الكتاب والسُّنة وأصول الشَّريعة، أخِذَ به، يقول: "أمَّا علم الكلام فمَمْدُوحٌ باعتبار منفعته، وهي تحقيقُ علم التَّوحيد وصونه، وكشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، ومذمومٌ باعتبار مضرَّته، وهي إثارَةُ الشُّبهات وتحريفُ العقائد، فبسبب ما ذكرنا كان إطلاقُ القول بذمِّه في كلِّ حالٍ، ومدحه في كلِّ حالٍ، من غير تفصيلٍ، خطأً" (Dan Fodio, 1957a; Dan Fodio, 1957b).

ج- **موقفه من العلوم الإنسانيَّة**: لم نقف على رأيٍ صريحٍ لدان فوديو حول العلوم الإنسانيَّة أو الطَّبيعيَّة مثل الطبِّ وغيره، ولعلَّ سببُ ذلك عدمُ بروز تلك العلوم بشكلٍ واضحٍ آنذاك، ولكن يمكن استخلاصُ موقفه من خلال بعض آرائه العابرة. على سبيل المثال، حين ناقش قضيَّة خروج المرأة للبيع والشِّراء ومزاولة المعاملات بالسُّوق، ذهب إلى جواز خروج النِّساء، ثم قال: "فإنْ قال قائلٌ: إنَّ النِّساء لا عِلْمَ عندهنَّ في الغالب بهذه الأمور ولا يجدْنَ مِنْ أهل الفقه مَنْ ينوبُ عنهنَّ فيها غالبًا، فالجواب: أنَّه يتعيَّنُ عليها أن تعملَ على تحصيل العلم في ذلك. كما يجبُ عليها أن تعرف أمر دينها، مثل الوضوءِ والغُسل والصَّلاة والصَّوم، وكذلك في شراء حوائجها" (Dan Fodio, 1957b)؛ فساوَى بين تحصيل العلم في العبادات، وتحصيل العلم في المعاملات (علم الاقتصاد). أيضًا، ذهب إلى أنَّ الدَّعوة والتَّعليم هو واجبُ الفقهاء دون غيرهم... "لأنَّ المحترفين لو تركوا حرفَتَهمْ؛ لبطُلَت المعايش" (Dan Fodio, 1957b)، فهو يرى أنَّ مزاوَلة الحِرَف والأعمال تُسقِطُ عن أصحابها القيام بالدَّعوة والتَّعليم والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

العلم للتَّطبيق والعمل

حرص الشَّيخ دان فوديو في ربط العلم النَّظري ربطًا مباشرًا بالتَّطبيق، أي أن يكون العلم ذا ارتباطٍ وثيقٍ بالحياة المعيش، سواء أكان ذلك في الاعتقادات، أم العبادات، أم المعاملات... فالعلم ما يكون استجابةً لظروف المجتمع، وحلاً لإشكالات الحياة الرَّاهنة. بهذا الصَّدد، نبَّه الشَّيخ الطَّلبة على أنَّ بلاد السُّودان لا تعدم علماء، وأنَّ جميع فنون العلم متوفِّرة لديهم، ولكن المعدوم هو العالم الأقدَرُ على تحويل ما تعلَّمه إلى أداةٍ فاعلةٍ. يقول: "إعلامُكم أنَّ جميع فنون العلم موجودَةٌ عند العلماء، لكنَّ المفقود في هذه الأزمنة: علْمُ السُّنن والبِدَع، إلاَّ عند القليل منهم، وإذا اطَّلعتُمْ على واحدٍ منهمْ (أو) فيَّ؛ فشُدُّوا أيدِيَكُم عليه، فإنَّه كالكبريتِ الأحمر" (Dan Fodio, 1957b). هذا، وقد جاء تطبيق هذه الرُّؤية عند الشَّيخ في مؤلَّفاته التي جاءت على شكل رسائل عمليَّة مختصرة توجيهيَّة للطَّلبة في مسائل الدَّعوة، والطُّرق العمليَّة في العبادات والمعاملات.

العلم بقدر الحاجة

بما أنَّه قد تقرَّر أنَّ التَّعليم إنَّما هو من أجل التَّطبيق المباشر، فإنَّ الشَّيخ قد أرْدَفَ هذا المبدأ بمبدإٍ مكمِّلٍ هو كون العلم بقدر حاجة صاحبه أو المجتمع إليه؛ إذ هو مثل دواءٍ يضرُّ إذا زاد عن حدِّه، وهذا المبدأ سارٍ في جميع أفرُع العلم: إلاهيَّاته وشرعيَّاته وإنسانيَّاته، روحانيَّاته وماديَّاته. على سبيل المثال، حين أورد الشَّيخُ مباحث الإيمان مع أدلَّتها الأصليَّة في الكتاب، صرَّح أنَّ واجب العامَّة في هذا

الباب مجرَّد الاعتقاد بما ذُكر، فالإنسان بوسعه أن... "يخرج من التَّقليد بأدنى نظرٍ كلُّ واحدٍ على حاله، وما يسَّره الله عليه، فقد يُستفادُ من آيةٍ من القرآن، وعجائب الخلق، أو مُطَالَعَة سِيَر السَّلَف، أو مُجالسَة أهل اليقين" (Dan Fodio, 1957b). أمَّا النَّظر في مباحث الاعتقاد على طريق الفلاسفة والمتكلِّمين فمحصورٌ في الخاصَّة وأهل البصيرة... "لِيَخرُجَ من التَّقليد، ويكون على بصيرة في اعتقاده؛ لأنَّ الدِّين مبنيٌّ على التَّبصُّر لأهل البصائر، لاسيَّما إذا بلغ المرء منه مقام الدَّعوة إليه. قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)" (Dan Fodio, 1957b). فالعلم عند الشَّيخ مرتبطٌ ارتباطًا عضويًّا بالعمل، يزيد وينقص بقدر الحاجة إلى العمل.

التَّعليم مسؤوليَّةٌ جماهيريَّة

بالإضافة إلى كون التَّعليم في الإسلام حقًّا فرديًّا، وواجبًا مقرَّرًا على كلِّ مسلمٍ، فإنَّ الشَّيخ دان فوديو يرى أنَّ التَّعلُّم هو حقٌّ جماهيريٌّ؛ بحيث يحرص كلُّ فردٍ على نقل ما تعلَّمه من العلم إلى مَنْ يليه، ثم إلى مَنْ يليه، وهكذا دَوالَيك، ويبدأ هذا المشروع الجماهيريُّ لنشر العلم –بطبيعة الحال– من الأفراد، فالأسرة، فالجيران، فالبلدة... في دوائر مُتَسَلْسِلة... "فحقٌّ على كلِّ مسلمٍ أنْ يبدأ بنفسه، فلْيَصُنْها بالمواظَبَةِ على الفرائضِ وتركِ المحرَّمات، ثم يعلِّمُ ذلك أهْلَهُ وأقاربَهُ، ثم يتعدَّى بعد الفراغ منهم إلى جيرانِهِ، ثم إلى أهل محلَّتِهِ، ثم إلى أهل بَلَدِه، ثم إلى السَّوادِ المكتَنِف لبَلَده، وكذا إلى أقصى العالم، فإنْ قامَ به الأدنى سقط عن الأبْعَد، وإلاَّ حَرَجَ به كلُّ قادرٍ عليه، قريبًا كان أو بعيدًا، وهذا شُغْلٌ شاغلٌ لمنْ يهمُّهُ أمرُ دينه" (Dan Fodio, 1957b).

بناءً على ما سبق، فإنَّ نقل العلم مسؤوليَّةٌ الجميع، ولكنْ... "إنْ قام بهذا الأمر واحدٌ، سقط الحرجُ عن الآخرين، وإلاَّ فيَعمُّ الحرجُ الكافَّة أجمعين" (Dan Fodio, 1957b)، وهنا حدَّد الشَّيخُ المقصودَ الدَّقيق "للكافَّة أجمعين"؛ حيث بيَّن أنَّ العموميَّة المقصودة هنا لا يخرج عن مداها أحدٌ من النَّاس، إنَّها تشمل بشكلٍ تدريجيٍّ: الخاصَّة من العلماء، والعامَّة من النَّاس، سواءٌ في ذلك مَن كان عالمًا فقيهًا متبصِّرًا بالدِّين، وبأحكام الشَّريعة، أم من عرف مسألةً واحدةً. بل إنَّ الجاهل الذي لا يعلم مسألةً، هو مسؤولٌ عن نشر العلم، لا أحد يفلتُ من المسؤوليَّة التَّعليميَّة في حال ضياع العلم، يقول: "أمَّا العالمُ فلِتَقصيره في الخروج، وأمَّا الجاهلُ فَلِتَقْصِيره في تَرْكِ العِلْم، وكلُّ عاميٍّ عرفَ شروط الصَّلاةِ، فعليه أن يُعرِّفَ غيرَهُ، وإلاَّ فهو شريكٌ في الإثم (...) وكلُّ مَنْ تعلَّمَ مسألةً واحدةً، فهو من أهل العلم بها، فعليه أن يُعرِّفها غيرَهُ إنْ كانتْ مِنْ فروض الأعيان، وإلاَّ كان شريكًا له في الإثم، ولكنَّ الإثم على الفقهاء أشدُّ؛ لأنَّ قدرتَهُم على تبليغ العلم أظَهَرُ، وهو ببضاعَتِهِم أَلْيَقُ" (Dan Fodio, 1957b).

العلم حقٌّ جماهيريٌّ

يعني التَّعلم للجميع (Education for all)، أنْ يكون العلم حقًّا مشاعًا لكلِّ فردٍ في المجتمع، وهو مبدأ من المبادئ التي نادت بها وثيقة الأمم المتَّحدة في الإعلان العالميّ عن حقوق الإنسان. لكن الشَّيخ دان فوديو وغيره من العلماء المسلمين –خاصَّة– قد سبقوا إلى التَّأكيد على هذا الحقِّ الإنسانيِّ حيث نصَّ دان فوديو على هذا المبدأ، وطبَّقه عمليًّا حين ندب علماء زمانه إلى تعليم النِّساء وإلى تعليم العبيد دون تمييزٍ بين أحدٍ وأحدٍ. صرَّح الشَّيخ بذلك حين ردَّ على العلماء المتحجِّرين المنكرين عليه إدراجه النِّساءَ في برنامجه التَّعليميِّ. قال: "يا عجبا، كيف يترُكُونَ أزواجَهُمْ وبناتِهِمْ وعبيدهم في ظُلمات الجهْل والضَّلال، وهم يعلِّمون طلاَّبهم صباحَ مَساء، وما ذلك إلاَّ لأنَّهم مُخطئون أنفُسَهُم؛ لأنَّ في تعليمهم طلاَّبَهم رياءً وفَخْرًا، وهذا خطأ عظيم؛ لأنَّ تعليم الزَّوْجات والبنات والعبيد واجبٌ، وتعليم الطُّلاَّب نَفْلٌ، والواجبُ مقدَّمٌ على النَّفل إجماعًا، ولا يجبُ تعليم الطُّلاب على العالِمِ إلاَّ إذا لم يكنْ هناك أحدٌ غيرُهُ، فحينئذٍ يجبُ تعليمُهُ لهم؛ لكنْ بعد تعليم أهله، لأنَّ

السَّابق أَوْلَى أنْ يُقدَّمَ على المَسْبوق" (Dan Fodio, 1957b). فههنا توجيهٌ عميقٌ من لدُن الشَّيخ لأقرانه العلماء؛ للرُّجوع إلى أنفسهم وترك الرِّياء، أو فهم فقه الأولويَّات، وتقديم تعليم ذَويهم على مَن دون ذلك.

بالجملة، فإنَّ فهم الشَّيخ لمبدأ التَّعليم للجميع كان فهمًا عميقًا، وكان تطبيقه كذلك له تطبيقًا واضحًا نشطًا، أثمر في الارتقاء بالمرأة في ظلِّ الخلافة الصُّكتيَّة وفي إنتاج الكثير من النِّساء المتعلِّمات. وقد أوردَتْ الباحثة جانْ بويْدْ قائمةً بعدد (٤٨) امرأةً من أشهر النِّساء المتعلِّمات المتفقِّهات من قريبات الشَّيخ وأتباعه (Boyd, 1989). وبلغت مؤلَّفات ثمانٍ من النِّساء المباشرات حول الشَّيخ (٥٩) مؤلَّفا، هذا ما عدا ابنته أسماء، فإنَّ مؤلَّفاتها قد بلغت تِسعًا وأربعين مؤلَّفا (Mahdi, 1988).

لا زمانيَّة العلم ولا مكانيَّته

من مظاهر الانفتاح الفكري الواسع عند الشَّيخ دان فوديو تأكيده على أنَّ العلم لا زمان ولا مكان محدَّدًا له، أي أنَّه لا يختصُّ بزمانٍ دون زمان، ولا بموضعٍ دون آخر، ولا بقومٍ دون غيرهم، فَبِوُسْعِ اللاَّحقين بلوغ ما لم يبلغه السَّابقون من العلم، والشَّيخ في هذا التَّأكيد واضحٌ في تعبيره، فقد ذهب إلى أن القول بأنَّ ما بلَغَهُ السَّابقون من العلم غير ممكنٍ بلوغه في العصور المتأخِّرة، وهمٌ من الأوهام. قال: "ومِنْ تلك الأوهام، اعتقادُ بعضهم يُسْتَبْعَدُ أن يفتَح الله لأحدٍ ممَّن تأخَّرَ ما لم يفتح لمَنْ تقدَّمَ مِنْ شُيوخِهم في باب العِلْم، وهذا أيْضًا باطلٌ ووَهْمٌ على الإجماع (...) فضلُ الله تعالى لا يختصُّ بالأزمنة والأمكنة، وهو تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ. كيف يُستَبْعدُ ذلك؟ قال تعالى: (وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ) (Dan Fodio, 1957a)؛ فتحصيل العلم كما يؤكِّده الشَّيخ في هذه المقولة، منوطٌ بالأسباب المودعة في الكون، متى ما اتَّبعها طالب العلم؛ بلغ مراده وحظَّه منه دون اعتبارٍ لجنسه، أو زمانه أو مكانه أو غير ذلك من الاعتبارات غير المؤثِّرة –حقيقةً– في تحصيل العلم والمعرفة. أكَّد الشَّيخ هذه الحقيقة مرَّةً أخرى حين قرَّر أنَّ الاجتهاد ممكنٌ في كلِّ عصرٍ، وأنَّ الكلَّ سواسيَّةٌ في فُرَص الوصول إلى مرتبة الاجتهاد. قال: "ولا يُشترط أيضًا (في الاجتهاد) الذُّكورة، ولا الحريَّة، وقد تكون قرانة الاجتهاد لامرأةٍ وعَبْد" (Dan Fodio, 2011).

تراكميَّة العلم والمعرفة

أكَّد الشَّيخ –في موقفه من طبيعة المعرفة– أنَّ المعرفة إنَّما هي تراكُميَّةٌ، فكلُّ جيلٍ هو نتاجٌ لمَنْ قبْلَهُ، وبذرةٌ لمن بعدَه، يقول: "فاشْتَغِلوا يا إخواني بقراءة تواليف علماء زمانكم؛ لأنَّهم هم العالِمُون بما هو الأهمُّ في زمانكم، ولأنَّ إليهم تفصيلُ ما أجمِلَ من تواليف العُلَماء المتقدِّمين؛ لأنَّ تواليف كلِّ دَوْرٍ تفصيلُ تَوَالِيفِ مَنْ قبلَهُ..." (Dan Fodio, 1963a). لذلك، فإنَّ كلَّ جيلٍ هو مسؤولٌ عن نفسه في حلِّ إشكالاته. ومهمَّة العلماء هي التَّأليف؛ تلبيةً لحاجات زمانهم الرَّاهنة، وإجابةً عن الأسئلة التي تعترض المجتمع، لا الرُّكونُ إلى مَنْ سبَقَهم من أجيالٍ؛ للبحث عن أجوبةٍ لمشكلاتهم عند أولئك. يقول: "ولذا اعتنى كلُّ عالمٍ بالتَّصنيف في زمانه مع أنَّه وجد كلَّ ما يحتاج إليه في الدِّين في تواليف مَنْ قبلَهُ" (Dan Fodio, 2011). يُستنتج من هذا أنَّ العلم الحقيقيَّ هو "علم الحال"، أي العلم الذي يجيب عن إشكالات الواقع. إذنْ، يرى الشَّيخ أنَّ التَّعليم والإنتاج العلميَّ نشاطٌ لا يمكن له أن يتوقَّف حينًا من الدَّهر، وأنَّ التَّأليف ضرورةٌ آنية، وحركةٌ دائبةٌ لا تعرف السُّكون أو الانقطاع في أيِّ زمنٍ من الأزمان، وقد أوضح الشَّيخُ هذه الحقيقة حين ندب طلبة العلم إلى القراءة والمعرفة الواعية لطبيعة ما يقرأون؛ فندَبَهُم إلى قراءة كُتُبه هو، وكُتُب أصحابه، وكُتُب علماء زمانهم. قال: "اشْتَغِلوا بقراءة تَوَاليف أخي عبد الله؛ لأنَّه مُشْتَغلٌ غالبًا بحفظ ظاهر الشَّريعة، واشْتَغِلُوا بقراءة تَوَالِيف وَلَدِي محمَّد بلٌّ؛ لأنَّه مشتغلٌ غالبًا بحفْظِ عِلْم سِياسَةِ الأمَّة، بحسب الأشخاص والمقاصد والأزمان والأحْوَال، واشْتَغِلوا بقراءة تَواليفي؛ لأنِّي مُشْتَغلٌ بحفظ الطَّرَفَين غالبًا، وتواليفُنا كلُّها تفصيلٌ لما أجْمِلَ في تواليف العُلَماء المتقدِّمين، وتواليفُ العُلَماء المتقدِّمين تَفْصيلٌ لما أجمِلَ في الكتاب والسُّنة"(Dan Fodio, 1963a).

وفي وصيَّة علميَّة منه لابنه بيللو ما يدلُّ على وعيه العميق بأهميَّة الابتكار والتَّجديد في العلم والمعرفة. يقول: "يا بُنيَّ! كان شيخنا أبو عبد الله يقول في مدائن التَّدريس: إذا لم يكنْ في مجلس الدَّرس التقاط زائدٍ من الشَّيخ فلا فائدة في حضور مجلسه (...) وإنَّما تدخلُ التَّواليف في ذلك –يعني الانتفاع بها بعد المهمَّات– إذا اشتملتْ على فوائدَ زائدةٍ، وإلاَّ فذلك تخسيرٌ للفائدة، ونعني بالفائدة: الزِّيادة على الكتُب المتقدِّمة" (Bello, 1957). عليه، فإنَّ أيَّ عمليَّة تعليميَّة أو أيَّ مؤلَّفٍ لا يُحقِّق هذا المعيار من إضافة "الجديد" إلى التَّراكم المعرفيِّ، فهو مضرٌّ بالصِّحة العلميَّة، وعبءٌ على فنِّ التَّأليف، وعنصرٌ طفيليٌّ في الجسم العلميِّ، وأداةٌ غريبٌ في المنظومة التَّربويَّة. إنَّ هذه الحقيقة واضحةٌ في قوله حين أكَّد ضرورة التَّأليف في كلِّ عصرٍ؛ حتى لا ينقطع حبْل السُّرة المعرفيّ بين السَّابق واللاَّحق، قال: "لأنَّ كلَّ عالمٍ يُراعي في تأليفه همَّ أهل زمانه وأغراضَهم؛ لأنَّه العالمُ بذلك، ولهذا كان تأليف كلِّ عالمٍ في زمانه أنْفَعَ لأهل ذلك الزَّمان مِنْ تواليف غَيْره" (Dan Fodio, 1957a).

تعليم المرأة

عُني الشَّيخ دان فوديو بتعليم المرأة نظريًّا وعمليًّا منذ أوَّل عهد حركته الإصلاحيَّة؛ فقام بتعليمهنَّ حذوًا بحذوٍ مع الرِّجال. يقول: "كنتُ أعلِّم الرِّجال فروض الأعيان، وتحضُرُ النِّساءُ من وراء حجاب، وأنْهاهنَّ من مخالطة الرِّجال، وأكرِّرُ في المجلس أنَّ اختلاط الرِّجال بالنِّساء حرامٌ حتى صار ذلك معلومًا بالضَّرورة، ثم أفردتُ للرِّجال يومهم، وللنِّساء يومهنَّ؛ لأنَّ ذلك أفضل" (Kani, 1987). هنا، يتجلَّى البُعد الرُّؤيَويُّ والتَّطبيقيُّ عند الشَّيخ في موقفه من تعليم المرأة إذا عُلم أنَّ ذلك كان في فترةٍ من الرُّكود الفكريِّ ببلاد هَوسا، كان تعليم المرأة فيها والعناية بتربيتها وتثقيفها من أقلِّ اهتمامات العلماء. بل وُجِدَ علماء كُثُر ممَّن عارضوا بشدَّة تعليم الشَّيخ للنِّساء؛ بحجَّة أنَّ ذلك يؤدّي إلى الاختلاط. من أولئك الشَّيخ مصطفى غوني صاحب القصيدة السِّجاليَّة في الاعتراض على الشَّيخ في حضور النِّساء مجالسه التَّعليميَّة (Kamara, 2010).

عليه، فإنَّ الشَّيخ قد ندَّد بإهمال تعليم المرأة، وعدَّ ذلك ممَّا عمَّت به البلوى ببلاد هَوْسا، ونعى على العلماء إهمالهم تعليم بناتهم ونسائهم أحكام العبادات والمعاملات، ووصف الشَّيخ هذا التَّصرُّف بـ"خطأ عظيم وبدعة محرَّمة"، وأنَّ فاعليه ينظرون إلى نسائهم وبناتهم وإلى ذويهم وكأنَّهم أنعام، أو أنَّهم مِنْ سَقَط المتاع "يعملون فيها حتَّى إذا انْكَسَرت؛ يطرحونها في الدِّمَن" (Dan Fodio, 1963b)، فهو هنا –بوضوح– يربط تعليم المرأة باحترامها، وتلك نظرةٌ تربويَّة راقية تقرن بين التَّعلم وبين الرُّؤية الأخلاقيَّة في النَّظر إلى المتعلِّم وأنَّ التَّعليم وسيلةٌ لتحقيق إنسانيَّته وكرامته. من جانبٍ آخر، فإنَّ الشَّيخ قد ناقش مسألة حقِّ المرأة المتزوِّجة في طلب العلم والخروج في سبيله مناقشةً عميقة متأنِّية في كتابه المخصَّص لذلك "إرشاد الإخوان في أحكام خروج النسوان"؛ حيث أكَّد على جواز خروج المرأة لطلب العلم. بل وجوب ذلك إذا تعيَّنت الحاجة إلى التَّعلم. فخروجها جائزٌ إذا لم يستطع الزَّوجُ تعليمها ما تحتاج إليه من العلم، وأمِنَتْ هي الاختلاط بالرِّجال حال خروجها. وفوق ذلك، ذهب الشَّيخ إلى أحقيَّة مقاضاة الزَّوجة زوجها حتى يقوم بتوفير مَنْ يعلِّمها أمور دينها ودنياها؛ إذا تقاعس الزَّوج في هذا الواجب، ولكنْ قبل أن يَستفْحِل الأمر إلى هذا المستوى، فإنَّ الشَّيخ قد أعطى الحلَّ الإسلاميَّ النَّاجع، وهو تعليم البنت وهي صغيرةٌ، وإلاَّ فتوفير فرصة اللِّقاء بين جماعةٍ من النِّساء وبين عالم؛ مستدلاً بأنَّ ذلك هو فعل النَّبي صلى الله عليه وسلم مع نساء المؤمنين.

فوق ذلك، فإنَّ الرُّؤية التَّربويَّة عند الشَّيخ نحو المرأة تتَّصف بالشُّموليَّة، تربية موسَّعة تشمل الأخلاق والعبادات والمعاملات. ظهرت هذه الرُّؤية حين ندب الشَّيخ إلى وجوب خروج المرأة لتعليم أمور البيع والشِّراء، مثل وجوب خروجها لتعلُّم كيفيَّات العبادات ومسائل الدِّين... قال: "فإنْ قال قائلٌ: إنَّ النِّساءَ لا عِلْمَ عندهنَّ في الغالب بهذه الأمور ولا يجدْنَ مِنْ أهل الفقه مَنْ ينوبُ عنهنَّ فيها غالبًا، فالجواب: أنَّه

يتعيَّنُ عليها أن تعملَ على تحصيل العلم في ذلك. كما يجبُ عليها أن تعرف أمر دينها، مثل الوضوء والغُسل والصَّلاة والصَّوم، وكذلك في شراء حوائجها"(Dan Fodio, 1957b).

الخاتمة

لقد كان في هذه الدِّراسة وقوفٌ عند الرُّؤية التَّربويَّة التَّعليميَّة عند الشَّيخ عثمان دان فوديو، وذلك عبر استعراض نُتَفٍ من آرائه وأفكاره المبثوثة في كتُبه ورسائله حول طبيعة العلم والمعرفة وبعض آليَّات التَّعليم. عليه، فقد تَمَحْوَرَت هذه الدِّراسة حول ثلاثة محاور أساسيَّة، أوَّلها: عرض سيرة مختصرةٍ للشَّيخ دان فوديو؛ تعدُّ توطئةً لرؤيته التَّربويَّة، وثانيها: استعراض الواقع العلميّ ببلاد السُّودان الغربيّ عامَّة في بلاد هَوْسا خاصَّة، وقد وُجد أن هذا الواقع كان خصبًا نشطًا، وأنَّ الثَّقافة الإسلامية والحركة العلميَّة كانت في تألُّقٍ في الفترات التي سبقت ظهور الشَّيخ دان فوديو، سواء في ظلِّ مملكة كانم وبورنو، أم في مالي وصونغاي. أمَّا في فترة الشَّيخ، فإنَّ العلماء قد مالوا إلى التَّحجُّر والانغلاق على أنفسهم. أما المحور الثَّالث الأخير، فقد تمَّ فيه تحديد حوالي سبع رؤًى تربويَّة تعليميَّة عند الشَّيخ دان فوديو، ممَّا يُعدُّ نُقلةً حقيقيَّة في النَّظر إلى النَّشاط التَّربويِّ التَّعليميّ. هذا بالإضافة إلى موقفه التَّقدُّمي الواضح حول تعليم المرأة حذوًا بحذوٍ بالرَّجل؛ تعليمًا شاملاً لكلِّ ما تحتاجه المرأة من علم ومعرفة. بهذا الاستعراض يمكن التَّأكيد أنَّ الشَّيخ دان فوديو كان ذا رؤيةٍ تربويَّة تعليميَّة حصيفةٍ راشدةٍ، وأنَّه قد نجح في نقل الكثير من تلك الرُّؤى إلى الواقع والتَّطبيق، وذلك ما حقَّق لدعوته التَّجديديَّة النَّجاح والتَّأثير العميق، بعد توفيق الله.

References

Al-Afriqi, L. (1990). *Wasf Afriqiya*. Trans. Muhammad Haji & Muhammad al-Akhdar. Dar al-Gharb al-Islami.

Al-Burtali, M. (1980). *Fath al-Shakur fi Ma'rifah A'yan 'Ulama' Takrur*. Dar al-Gharb al-Islami.

Balogun, I. A. B. (1973). The Life and Work of the Mujaddid of West Africa, 'Uthman b. Fudi Popularly Known as Usumanu Dan Fodio. *Islamic Studies, 12(4), 271-292*.

Bello, M. (1957). *Infaq al-Maysur fi Tarikh Bilad Takrur*. Luzac.

Boyd, J. (1989). *The Caliph's Sister*. F. Cass.

Dan Fodio, U. (1957a). *Hisn al-Afham min Juyush al-Awham*. Al-Mashhad al-Husayni.

___________ (1957b). *Ihya' al-Sunnah wa-Ikhmad al-Bid'ah*. Markaz al-Dirasat al-Islamiyyah.

___________ (1963a). *Najm al-Ikhwan Yastaqi'un bi-hi fi Umur al-Zaman*. Ed. Ahmad M. Jami'ah al-Mansurah.

___________ (1963b). *Nur al-Albab*. Al-Madrasah al-Nizamiyyah.

___________ (1963c). *Tazyin al-Waraqat*. Markaz al-Nashr bi-Jami'ah Ibadan.

___________ (2011). *Fath al-Basa'ir li-Tahqiq Wad' al-'Ulum al-Zawahir wa'l-Bawatin*. Ed. Sini Muhammad. ENS.

Hiskett, M. (1957). Material Relating to the State of Learning among the Fulani before their Jihad. *BSOAS, University of London, 19(3), 550-578*.

___________ (1973). *The Sword of Truth*. Oxford University Press.

Hunwick, J. (1994). *Arabic Literature of Africa: The writings of Central Sudanic Africa*. BRILL.

Ibrahim, S. (1986). *A Revolution in History*. Mansell.

Kamara, H. M. (2010). *Zuhur al-Basatin fi Tarikh al-Sawadin*. Ed. Nasir al-Din S. Mu'assasah Ja'izah 'Abd al-'Aziz al-Babatin.

Kani, A. (1987). *Malamih min al-Jihad al-Islami fi Gharb Afriqiya*. Dar al-Zahra' li'l-I'lam.

Last, M. (1967). *The Sokoto Caliphate*. Longman.

Mahdi, A. (1988). *Pastoralists of the West African Savannah*. Manchester University Press.